السلطان محمد الفاتح

شاءت الأقدار أن يكون السلطان العثمانى محمد الفاتح (١٤٣٢ – ١٤٨١م) هو صاحب البشارة التى بشر بها النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثه " لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش ".

وانتظر المسلمون ثمانية قرون ونصف قرن حتى تحققت البشارة ، وفتحت القسطنطينية بعد محاولات جادة بدأت منذ عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه عام ٦٥٢ م ، وازدادت اصراراً فى عهد معاوية بن أبى سفيان مرتين الأولى عام ٦٦٦م ، والثانية بين سنتى ٦٧٣ – ٦٧٩ م ، واشتعلت أملاً فى عهد سليمان بن عبد الملك عام ٧١٩م ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح .

ولد السلطان محمد الفاتح ونشأ فى كنف أبيه السلطان " مراد الثانى " سابع سلاطين الدولة العثمانية ، الذى تعهده بالرعاية والتعليم ليكون جديراً بالسلطنة والنهوض بمسئولياتها فأتم حفظ القرآن وقرأ الحديث وتعلم الفقه ، ودرس الرياضيات والفلك وأمور الحرب ، والى جانب ذلك تعلم العربية والفارسية واللاتينية واليونانية ، واشترك مع أبيه السلطان مراد فى حروبه وغزواته .

ثم عهد إليه أبوه بإمارة " مغنيسيا " وهو صغير السن ، ليتدرب على إدارة شئون الدولة وتدبير أمورها ، تحت إشراف مجموعة من كبار علماء عصره ، وهو ما أثر فى تكوين شخصية الأمير الصغير ، وبناء اتجاهاته الفكرية والثقافية بناءً إسلامياً صحيحاً .

تولى محمد الفاتح السلطنة بعد وفاة أبيه فى عام ١٤٥١ م وبدأ فى التجهيز لفتح القسطنطينية ، ليحقق الحلم الذى يراوده ، وليكون هو محل البشارة النبوية ، وفى الوقت نفسه يسهل لدولته الفتية الفتوحات فى منطقة البلقان ، ويجعل بلاده متصلة لا يفصلها عدو يتربص بها .

وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة فى الإصلاح الداخلى تطلع إلى المناطق المسيحية فى أوربا لفتحها ونشر الإسلام فيها ، ولقد ساعدته عوامل عدة فى تحقيق أهدافه ، منها الضعف الذى وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوربية الأخرى ، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التى عمت جميع مناطقها ومدنها ، ولم يكتف السلطان محمد بذلك بل أنه عمل بجد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجى الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامى لفترة طويلة من الزمن ، والتى طالما اعتزت بها الإمبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة ، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية .

ومن أبرز ما استعد به لهذا الفتح أن صب مدافع عملاقة لم تشهدها أوربا من قبل ، وقام ببناء سفن جديدة فى بحر مرمرة لكى تسد طريق "الدردنيل" ، وشيد على الجانب الأوربى من " البوسفور " قلعة كبيرة عرفت باسم قلعة " روملى حصار " لتتحكم فى مضيق البوسفور .

وبعد أن أتم السلطان كل الوسائل التى تعينه على تحقيق النصر ، زحف بجيشه البالغ ٢٦٥ ألف مقاتل من المشاة والفرسان ، تصحبهم المدافع الضخمة ، واتجهوا إلى القسطنطينية ، وفى فجر يوم الثلاثاء ٢٩ من مايو ١٤٥٣م نجحت قوات محمد الفاتح فى اقتحام أسوار القسطنطينية ، فى واحدة من العمليات العسكرية النادرة فى التاريخ ، وقد لقب السلطان " محمد الثانى " من وقتها بـ "محمد الفاتح " ، فصار لا يعرف إلا به .

ولما دخل المدينة ترجل عن فرسه ، وسجد لله شكراً ، وأمر بإقامة مسجد فى موضع قبر الصحابى الجليل " أبى أيوب الانصارى " الذى كان ضمن صفوف المحاولة الأولى لفتح المدينة العريقة ، وقرر اتخاذ القسطنطينية عاصمة لدولته ، وأطلق عليها اسم " اسلام بول " أى دار الإسلام ، ثم حرفت بعد ذلك واشتهرت باستنبول ، وانتهج سياسة متسامحة مع سكان المدينة ، وكفل لهم ممارسة عباداتهم فى حرية كاملة ، وسمح بعودة الذين غادروا المدينة فى أثناء الحصار إلى منازلهم .

بعد إتمام هذا الفتح الذى حققه محمد الثانى وهو لا يزال شاباً لم يتجاوز الخامسة والعشرين اتجه إلى استكمال الفتوحات فى بلاد البلقان ، ففتح بلاد الصرب (سنة ١٤٥٩م) وبلاد المورة (سنة ١٤٦٠م) وبلاد الافلاق وبغدان (رومانيا) (سنة ١٤٦٢م) وألبانيا بين عامى (١٤٦٣ – ١١٤٧٩ م) وبلاد البوسنة والهرسك بين عامى (١٤٦٣ – ١٤٦٥ م) ، ودخل فى حرب مع المجر سنة ١٤٧٦ م ، كما اتجهت أنظاره إلى آسيا الصغرى ففتح طرابزون سنة ١٤٦١م.

كان من بين أهداف محمد الفاتح أن يكون إمبراطوراً على روما ، وأن يجمع فخاراً جديداً إلى جانب فتحه القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ولكى يحقق هذا الأمل الطموح كان عليه أن يفتح إيطاليا ، فأعد لذلك عدته وجهز

أسطولاً عظيماً ، تمكن من إنزال قواته وعدد كبير من مدافعه بالقرب من مدينة " أوترانت " ، ونجحت تلك القوات فى الاستيلاء على قلعتها وذلك فى يوليو ١٤٨٠م .

وعزم محمد الفاتح على أن يتخذ من تلك المدينة قاعدة يزحف منها شمالاً فى شبه جزيرة إيطاليا ، حتى يصل إلى روما ، ولكن المنية وافته فى ٣مايو ١٤٨١م ، واتهم أحد اطبائه بدس السم له فى الطعام ، وكان لموته دوى هائل فى أوربا التى تنفست الصعداء حين علمت بوفاته ، وأمر البابا أن تقام صلاة الشكر ثلاثة أيام ابتهاجاً بهذا النبأ

لم تكن ميادين الجهاد والحرب التى خاضها محمد الفاتح خلال مدة حكمه التى بلغت ثلاثين عاماً هى أبرز إنجازات محمد الفاتح حيث اتسعت الدولة العثمانية اتساعاً عظيماً لم تشهده من قبل – وإنما كان رجل دولة من طراز رفيع فقد استطاع بالتعاون مع الصدر الأعظم " قرة مانلى محمد باشا " وكاتبه "ليث زاده محمد جلبى " وضع الدستور المسمى باسمه ، وقد بقيت مبادئه الأساسية سارية المفعول فى الدولة العثمانية حتى عام ١٨٣٩م .

واشتهر محمد الفاتح بأنه راع للحضارة والأدب ، وكان شاعراً مجيداً له ديوان شعر ، وقد نشر المستشرق الألمانى " ج.جاكوب " أشعاره فى برلين سنة ١٩٠٤م وكان الفاتح يداوم على المطالعة وقراءة الأدب والشعر ، ويصاحب العلماء والشعراء ، ويصطفى بعضهم ويوليهم مناصب الوزارة .

وعلى الرغم من انشغال الفاتح بالجهاد فإنه عنى بالإعمار وتشييد المبانى الراقية ، ففى عهده أنشئ أكثر من ثلاثمائة مسجد ، منها فى العاصمة "إستنبول" وحدها (١٩٢) مسجداً وجامعاً ، بالإضافة إلى (٥٧) مدرسة ومعهداً.

ومن أشهر آثاره المعمارية مسجد السلطان محمد ، وجامع أبى أيوب الانصارى ، وقصر " سراى طوب قبو ".

ملوك الطوائف

ملوك الطوائف ... هى فترة تاريخية فى الأندلس بدأت حوالى عام ١٠٣١ م عندما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور سقوط الدولة الأموية فى الأندلس ، وفى ذلك الوقت كان هناك قوتان رئيسيتان متصارعتان هما البربر والعرب ، واستطاع البربر بزعامة بنى حمود أن يسيطروا على المثلث الجنوبى فى شبه الجزيرة الأسبانية ، وأن يقيموا ملكاً وخلافة فى قرطبة وأشبيليه ومالقة والجزيرة ، وكانت إمارة باديس تحمى الجناح الشمالى الغربى لتلك الخلافة البربرية ، فلما انتهت دولة حمود عام ١٠٥٧م ، كان البربر بعد أن خسروا معركة قرطبة قد بسطوا سلطانهم على معظم القواعد الواقعة جنوبى نهر الوادى الكبير ، وبعض المناطق الشرقية والغربية الشمالية ، بينما كانت الأسر العربية المنافسة لهم قد فازت بمعظم القواعد الأندلسية الكبرى مثل قرطبة وأشبيليه وسرقسطة وبلنسيه ومرسيه وألمرية .

وهكذا أضحى صرح الأندلس وقد انهارت دعائمه ، وقامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دويلات ، عرف حكامها بملوك الطوائف الذين قسموا الدولة الكبرى إلى (٢٢ دويلة) وكان هؤلاء الملوك ما بين وزير سابق ، وقائد من ذوى النفوذ ، وحاكم لإحدى المدن ، وشيخ للقضاء ، وزعيم من ذوى المال

والحسب ، وبسط كل منهم سلطانه على ما أتيح له من مدن ، وأسس أسرة حاكمة من أهله وذويه .

وبينما ورثت تلك الدويلات ثراء الخلافة الأموية ، إلا أن عدم استقرار الحكم فيها ، والتناحر المستمر بين بعضها البعض جعل كل منها فريسة لمسيحى الشمال .

أسرف ملوك الطوائف فى الترف ، وتفننوا فى صنوف البذخ ، وكانوا يبنون القصور وينفقون فى هندستها أموالاً باهظة فى سبيل تحقيق متعهم ، وكان كل ملك من هؤلاء الملوك يحاول أن يجعل من مملكته ملتقى للشعراء والأدباء والمغنيين ، ولجأ الملوك من أجل إرضاء نزواتهم إلى إثقال كاهل رعاياهم بالضرائب.

ووصل الأمر إلى أن ملوك الطوائف كانوا يدفعون الجزية للملك الفونسو السادس ملك قشتالة إلا أمير مملكة بطليوس المتوكل بن الأفطس ، وبينما كان المعتمد بن عباد يحكم أشبيليه ، جاءه ذات يوم وزير الفونسو لأخذ الجزية ، وأساء الأدب مع المعتمد ، حين طلب بكل وقاحة أن يسمح لزوجة الفونسو الحامل أن تضع مولودها فى أكبر مساجد المسلمين ، لأنه تم التنبؤ لها أنها إذا ولدت هناك سيدين المسلمين بالولاء لولدها ، فغضب المعتمد وقتل الوزير ، وعندما علم الفونسو السادس بقتل وزيره ، غضب وسار إلى أشبيليه وحاصرها بجيشه ، وبعث إلى المعتمد بن عباد يخبره أنه سيمكث هنا ولا يوجد ما يضايقه سوى الذباب ، ويأمره أن يبعث له بمروحة ليروح بها الذباب ، فلما وصلت هذه الرسالة إلى المعتمد قلبها وكتب على ظهرها : والله لئن لم ترجع لأروحن لك بمروحة من المرابطين ، حيث قصد المعتمد الاستعانة بدولة المرابطين ، فخاف الفونسو وجمع جيشه وانصرف .

وإزاء تصاعد الخلاف بين ملوك الطوائف وتزايد تهديدات ملك قشتالة ، فكر ملوك الطوائف فى الكارثة التى توشك أن تعصف بهم وهى سقوط دولة الأندلس فقاموا بعقد اجتماع يضم كافة أمراء الأندلس وعلماء الأندلس ، وأشار العلماء فى ذلك الاجتماع بالجهاد ، وبالطبع عارض الأمراء ذلك الرأى بشدة بحجة عدم قدرتهم على الوقوف وحدهم فى مواجهة القشتاليين ، فاقترح العلماء مرة أخرى الاستعانة بالمرابطين ، فتخوف الأمراء من ذلك الأمر لأن المرابطين دولة قوية ولو هزمت النصارى لأخذت دولة الأندلس وضمتها إلى دولة المرابطين ، فتجادلوا كثيراً حتى قام المعتمد على الله بن عباد وقال خطبة كان آخرها مقولته الشهيرة " ولا أحب أن ألعن على منابر المسلمين ، والله لئن أرعى الإبل فى المغرب خير لى من أن أرعى الخنازير فى أوربا ".

فلما انتهى من خطبته تشجع المتوكل على الله بن الأفطس ، وعبد الله بلقين ، ووافقا على طلب العون من المرابطين لمحاربة قشتالة ، وقام هؤلاء الأمراء الثلاثة بإرسال وفد مهيب من الوزراء والعلماء إلى دولة المرابطين فى المغرب.

عندما وصل الوفد إلى يوسف بن تاشفين فرح بهذه الفرصة للجهاد فى سبيل الله وجهز سبعة آلاف رجل وجهز السفن وعبر مضيق جبل طارق ، ولكن فى وسط المضيق ترتفع الأمواج ويهيج البحر وتكاد السفن أن تغرق فيقف ذليلاً خاشعاً يدعو ربه والناس تدعو معه يقول : " اللهم إن كنت تعلم فى عبورنا هذا البحر خيراً لنا وللمسلمين فسهل علينا عبوره وإن كنت تعلم غير ذلك فصعبه علينا حتى لا نعبره " فتسكن الرياح ويعبر الجيش ، ويدخل يوسف بن تاشفين أرض الأندلس ، ويستقبله الناس استقبال الفاتحين ويدخل إلى قرطبة ويدخل إلى أشبيليه ، ثم يعبر إلى اتجاه الشمال فى اتجاه مملكة قشتالة، حتى وصل إلى الزلاقة فى شمال الأندلس ، وعندما وصل هناك كان قد انضم إليه

الكثير من أهل الأندلس حتى وصل جيشه إلى حوالى ثلاثين ألف رجل ، وهناك وقعت معركة الزلاقة عام ١٠٨٦م وكانت معركة شرسة انتصر فيها المسلمون، ولم يصل من جيش القشتاليين مع ملكهم إلى طليطلة سوى مائة فارس فقط.

وبعد أن عاد يوسف بن تاشفين إلى أرض المغرب ، حدثت الصراعات بين أمراء المؤمنين الموجودين فى بلاد الأندلس على غنائم معركة الزلاقة ، وحدثت الصراعات على البلاد المحررة ، فضج العلماء وذهبوا إلى يوسف بن تاشفين يطلبون منه الدخول مرة أخرى إلى الأندلس لتخليص الشعب من هؤلاء الأمراء ، فتورع يوسف بن تاشفين من محاربة المسلمين ، فأتته الفتاوى من كل بلاد المسلمين ، تطلب منه أن يدخل إلى البلاد ، ويضمها إلى دولة المرابطين حتى ينجد المسلمين مما هم فيه ، ففعل ودخل عام ١٠٩٠م ، وهناك حاربه أمراء المسلمين ، وممن حاربه المعتمد بن عباد ، واستطاع يوسف بن تاشفين أن يضم كل بلاد الأندلس ، وأن يحرر سرقسطة ، ويضمها إلى بلاد المسلمين وأصبح يوسف بن تاشفين أميراً على دولة تصل من شمال الأندلس بالقرب من فرنسا إلى وسط أفريقيا وبهذا انتهى عصر ملوك الطوائف.

دولة المرابطين ...
صفحة رائعة من تاريخ مجهول

دولة إسلامية عظيمة حكمت شمال غرب أفريقيا حتى وسط أفريقيا ثم عبرت البحر المتوسط ووصلت إلى شمال الأندلس ، اتخذت فاس عاصمة لها ما بين عامى ١٠٥٦ – ١٠٨٦ ، ثم انتقلت العاصمة إلى مراكش منذ عام ١٠٨٦ ... وظلت دولة المرابطين حتى عام ١١٤٧م ... ولنبدأ الحكاية .

فى أعماق صحراء موريتانيا وبالتحديد فى الجنوب القاحل ، حيث الصحراء الممتدة والجدب المقفر والحر الشديد ، وحيث أناس لا يتقنون الزراعة ويعيشون على البداوة ، كانت تعيش قبائل البربر ، ومن قبائل البربر الكبيرة كانت قبيلة " صنهاجة " وكانت قبيلتى " جدالة ولمتونة " أكبر فرعين فى "صنهاجة " ، وكانت " جدالة " تقطن جنوب موريتانيا وكانت قد دخلت الإسلام منذ قرون ، وكان على رأس جدالة رئيسهم يحيى بن إبراهيم الجدالى ، وكان لهذا الرجل فطرة سوية وأخلاق حسنة ، فقد استشرى فى قومه تصرفات ودعوات منحرفة عن الإسلام وحقيقته ، وكان الرجل لا يملك من العلم ما يستطيع أن يغير الناس .

ثم هداه تفكيره أن يذهب فى طريق عودته من الحج إلى مدينة القيروان (فى تونس حالياً) وهناك قابل شيخ المالكية عام ١٠٣٩ م وقص عليه ما فى

قومه من بعد عن الإسلام ، وطلب منه أن يبعث معه أحد علمائه ليعلم الناس الإسلام فأرسل معه شيخاً جليلاً هو " عبد الله بن ياسين " الذى قبل هذه المهمة .

اتجه الشيخ عبد الله بن ياسين حتى وصل جنوب موريتانيا حيث قبيلة جدالة ، وهاله ما رآه فى الناس من جهل مطبق وبعد تام عن الإسلام ، وبدأ يعلمهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فثاروا عليه ، وكرر محاولاته أكثر من مرة ، وهم يثورون عليه فى كل مرة حتى انتهى الأمر بهم إلى طرده من البلاد .

وما كان من عبد الله بن ياسين إلا أن تعمق فى الصحراء ناحية الجنوب حتى وصل إلى شمال السنغال ، وهناك اعتزل متعبداً فى جزيرة على ضفاف نهر النيجر ، وصنع خيمة ثم بعث برسالة إلى أهل جدالة الذين تركهم يخبرهم فيها بمكانه ، فمن يريد أن يتعلم الإسلام فليأته ، وبالفعل وصل إليه خمسة شبان من جدالة ، وفى خيمته أخذ الشيخ عبد الله بن ياسين يعلمهم الإسلام كما أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وكيف أن الإسلام نظام شامل متكامل ينظم كل أمور الحياة ، وبدأ يعلمهم العقيدة الصحيحة ، والجهاد فى سبيل الله وكيف يركبون الخيل ويحملون السيوف ، ويعتمدون على أنفسهم فى مطعمهم ومشربهم وكيف ينزلون إلى الغابات فيصطادون الصيد ويأتون به إلى الخيمة يطبخونه ويأكلونه ولا يستجدون الطعام ممن حولهم من الناس .

ذاق الرجال معه حلاوة الدين ثم شعروا أن واجبهم أن يأتون بمعارفهم وأقاربهم وذويهم ، لينهلوا من هذا المعين ، فذهبوا إلى جدالة – وكانوا خمسة رجال – وقد رجع كل منهم برجل فأصبحوا عشرة ، ثم زادوا إلى عشرين ، وحين ضاقت عليهم الخيمة أقاموا خيمة ثانية فثالثة ورابعة وبدأ العدد فى ازدياد مستمر .

ومع كثرة الخيام وازدياد العدد ، أصبح من الصعب على الشيخ توصيل علمه إلى الجميع ، فقسمهم إلى مجموعات صغيرة ، وجعل على كل منها واحداً من النابغين ، وازداد العدد حتى وصل عام ١٠٤٨م بعد أربعة أعوام فقط من بداية دعوته ونزوحه إلى شمال السنغال إلى ألف شخص على أفضل ما يكون من فهم الإسلام والواقع ... وعلى قبائل صنهاجة المفرقة والمشتتة توزع الألف رجل ، يأمرون بالمعروف ويعلمون الناس أمور دينهم لتبدأ بدايات المرابطين ، حيث أن المرابطين أو المجاهدين كانوا يتخذون خياماً على الثغور يحمون فيها ثغور المسلمين ، ويجاهدون فى سبيل الله وحيث أن الرباط هو ملازمة الجهاد فقد سمى الشيخ عبد الله بن ياسين ومن معه ممن كانوا يرابطون فى خيام على نهر السنغال بجماعة المرابطين ، وعرفوا فى التاريخ بهذا الإسم .

وفى عام ١٠٥٣ م اقتنع بفكر الشيخ عبد الله بن ياسين وجماعته يحى بن عمر اللمتونى زعيم قبيلة (لمتونة) ثانى أكبر قبيلتين من قبائل صنهاجة ، ودخل وكل قبيلته فى الإسلام كما ينبغى أن يكون الإسلام ، وبعد وفاته عام ١٠٥٥م دخل خليفته الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتونى بحماسة شديدة مع الشيخ عبد الله بن ياسين ، وبدأ أمرهم يقوى وأعدادهم تزداد ، وبدأ المرابطون يصلون إلى أماكن أوسع حول المنطقة التى كانوا فيها فى شمال السنغال ، فبدأوا يتوسعون حتى وصلت حدودهم من شمال السنغال إلى جنوب موريتانيا ، وأدخلوا معهم جدالة ، فأصبحت جدالة ولمتونة وهما القبيلتان الموجودتان فى شمال السنغال وجنوب موريتانيا جماعة واحدة تمثل جماعة المرابطين .

أما الشيخ عبد الله بن ياسين فقد استشهد فى إحدى جولاته بينما كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر سنة ١٠٥٩ م ، بعد أن أمضى أحد عشر عاماً فى تربية الرجال على الجهاد والفقه الصحيح لمعانى الإسلام العظيمة ،

وقد ترك أثنا عشر ألف مجاهد قد تربوا على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام والسلف الصالح .

بعد الشيخ عبد الله بن ياسين تولى الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتونى زعامة جماعة المرابطين وفى خلال سنتين من زعامته لهذه الجماعة الناشئة يكون قد ظهر فى التاريخ ما يعرف بدويلة المرابطين ، وأرضها آنذاك شمال السنغال وجنوب موريتانيا ، وهى بعد لا تكاد ترى على خريطة العالم .

وبعد سنتين من تولى الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتونى زعامة المرابطين، علم بوجود خلاف بين المسلمين فى جنوب السنغال فى مكان بعيد تماماً عن دولة المرابطين ، فأخذ نصف المرابطين منطلقاً حيث الصراع تاركاً زعامة المرابطين لإبن عمه يوسف بن تاشفين ، وبعد أن حل الصراع فى جنوب السنغال ، فوجئ بوجود قبائل وثنية لا تعبد الله ولم يصل إليها الإسلام ، فبدأ على الفور دعوتهم إلى الإسلام وظل يتنقل من قبيلة إلى قبيلة يدعو الله لمدة خمسة عشر سنة كاملة .

منذ أن ترك الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتونى دويلة المرابطين فى جنوب موريتانيا وشمال السنغال فى ١٠٦١ م والشيخ يوسف بن تاشفين ينتظر وصوله ، مر يوم ويومين وشهر وشهرين ولم يرجع ، وحين علم أنه قد توغل فى أفريقيا ما كان منه إلا أن بدأ ينظر فى الشمال باحثاً عمن ابتعد عن دين الله يعلمه ويرده إليه .

نظر يوسف بن تاشفين فى شمال موريتانيا (المنطقة التى تطوه) وفى جنوب المغرب العربى فرأى من حال البربر الذين يعيشون فى هذه المنطقة أموراً بعيدة عن الإسلام وتعاليمه بل وجد فيها من يدعى النبوة ، فأخذ جيشه وانطلق إلى الشمال يدعو إلى الإسلام ، وحين عاد الشيخ أبو بكر بن عمر

اللمتونى عام ١٠٧٦ م بعد خمسة عشر سنة من الدعوة وجد يوسف بن تاشفين أميراً على كل من السنغال وموريتانيا والمغرب والجزائر وتونس ومعه جيش من مائه ألف فارس يرفعون راية المرابطين ، فتنازل له عن الإمارة لإعجابه بما صنع ، وعاد إلى أدغال أفريقيا للدعوة من جديد ، فأدخل الإسلام إلى غينيا بيساو ، وسيراليون ، وجنوب السنغال ، وساحل العاج ، ومالى ، وبوركينافاسو، والنيجر وغانا ، وداهومى ، وتوجو ، ونيجيريا ، والكاميرون ، وأفريقيا الوسطى ، والجابون وظل على حاله من الدعوة حتى استشهد فى إحدى فتوحاته عام ١٠٨٧ م .

وفى ذلك الوقت كان ملوك الطوائف فى الأندلس قد استغاثوا بيوسف بن تاشفين لمحاربة الملك الفونسو السادس ملك قشتالة الذى استغل ضعفهم وتشتتهم، حيث عبر إليهم فى جيش من المسلمين لمواجهة جيش الفونسو السادس وهزمه فى موقعة " الزلاقة " الشهيرة عام ١٠٨٦م رغم العون الذى جاء إلى ملك قشتالة من فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وألمانيا ، ورغم صكوك غفران البابا لكل من شارك فى هذه الحرب .

وبعد عودة يوسف بن تاشفين إلى المغرب عاد مرة أخرى إلى الأندلس عام ١٠٩٠ م استجابة للفتاوى التى قدمت إليه من دول العالم الإسلامى بضرورة التدخل وحسم الصراع بين ملوك الطوائف حتى لا تسقط الأندلس ، وبالفعل استطاع أن يضم إلى امبراطوريته كل بلاد الأندلس ، وأن يقضى على فترة ملوك الطوائف ، وحين توفى يوسف بن تاشفين عام ١١٠٦ م كانت دولة المرابطين متربعة على خريطة العالم من شمال الأندلس إلى وسط أفريقيا والجزائر شرقاً والمحيط الاطلنطى غرباً ، شاغلة ثلث مساحة أفريقيا كلها .

محاكم التفتيش

سقطت غرناطة آخر قلاع المسلمين فى أسبانيا عـام ١٤٩٢م ، وكـان ذلك نذيراً بسقوط صرحْ الأمة الأندلسية الدينى والاجتمـاعى ، وتبـدد تراثهـا الفكرى والأدبى ، وكانت مأساة المسلمين هناك من أفظع مآسى التاريخ ، حيث شهدت تلك الفترة أعمالاً بربرية وحشية ارتكبتها محـاكم التحقيـق (التفتـيش) لتطهير أسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين ، وإبادة تراثهم الذى ازدهر فى هذه البلاد زهاء ثمانية قرون من الزمان .

وهاجر كثير من مسلمى الأندلس إلى الشمال الأفريقـى بعـد سـقوط مملكتهم فراراً بدينهم وحريتهم من اضطهاد النصارى الأسبان لهـم ، وعـادت أسبانيا إلى دينها القديم ، أما من بقى من المسلمين فقد أجبر علـى التنصـر أو الرحيل ، وأفضت هذه الروح النصرانية المتعصبة إلى مطاردة وظلم وترويـع المسلمين العزل ، وانتهت بتنفيذ حكم الإعدام ضد أمة ودين على أرض أسبانيا .

ونشط ديوان التحقيق أو الديوان المقدس الذى دعمه العرش والكنيسة فى ارتكاب الفظائع ضد الموريسكيين (المسلمين المتنصرين) وصدرت عشـرات القرارات التى تحول بين هؤلاء المسلمين ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم ، فقد أحرق الكاردينال "خمينيث " عشـرات الآلاف مـن كتـب الـدين والشـريعة

الإسلامية، وصدر أمر ملكى فى ٢٠ يونيو ١٥١١م يلزم جميع السكان الذين تنصروا حديثاً أن يسلموا سائر الكتب العربية التى لديهم ، ثم تتابعت المراسيم والأوامر الملكية التى منعت التخاطب باللغة العربية وانتهت بفرض التنصير الاجبارى على المسلمين ، فحمل التعلق بالأرض وخوف الفقر كثيراً من المسلمين على قبول التنصر ملاذاً للنجاة ، ورأى آخرون أن الموت خير ألف مرة من ذلك ، وفر آخرون بدينهم ، وكتبت نهايات متعددة لمأساة واحدة هى رحيل الإسلام عن الأندلس .

توفى فرناندو الخامس ملك أسبانيا فى ١٥١٦م وأوصى حفيده شارل الخامس بحماية الكاثوليكية والكنيسة ، وتوطيد المذهب الكاثوليكى ، وكان الملك " فرناندو الخامس " ملك أسبانيا لمدة عشرين عاماً بعد سقوط الأندلس قد أنزل العذاب والاضطهاد بمن بقى من المسلمين ، وكانت أداته فى ذلك محاكم التحقيق التى أنشئت بمرسوم بابوى وعين القس " توماس دى تركيمادا " محققاً عاماً لها ووضع دستوراً لهذه المحاكم الجديدة وعدداً من اللوائح والقرارات .

وقد مورست فى هذه المحاكم معظم أنواع التعذيب المعروفة فى العصور الوسطى ، وأزهقت آلاف الأرواح تحت وطأة التعذيب ، وقلما أصدرت هذه المحاكم حكماً بالبراءة ، بل كان الموت والتعذيب الوحشى هو نصيب وقسمة ضحاياها ، حتى أن بعض الضحايا كان ينفذ فيهم حكم الحرق فى احتفال يشهده الملك والأحبار .

وصدر مرسوم فى مارس ١٥٢٤ يحتم تنصير كل مسلم بقى على دينه وإخراج كل من أبى النصرانية من أسبانيا وأن يعاقب كل مسلم أبى التنصر أوالخروج فى المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة ، وأن تحول جميع المساجد الباقية إلى كنائس.

ولما رأى الموريسكيون هذا التطرف من الدولة الأسبانية ، استغاثوا بشارل الخامس ملك أسبانيا الجديد ، وبعثوا وفداً منهم إلى مدريد ليشرح له مظالمهم ، فندب شارل محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة وقضاة التحقيق برئاسة المحقق العام لتنظر فى شكوى المسلمين ، ولتقرر ما إذا كان التنصير الذى وقع على المسلمين بالإكراه ، يعتبر صحيحاً ملزماً ، بمعنى أنه يحتم عقاب المخالف بالموت .

وقد أصدرت المحكمة قرارها بعد مناقشات طويلة ، بأن التنصير الذى وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة ، لأن هؤلاء الموريسكيين سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه ، فكانوا بذلك أحراراً فى قبوله .

وعلى أثر ذلك صدر أمر ملكى بأن يرغم سائر المسلمين الذين تنصروا كرهاً على البقاء فى أسبانيا باعتبارهم نصارى ، وأن ينصر كل أولادهم ، فإذا ارتدوا عن النصرانية ، قضى عليهم بالموت أو المصادرة وقضى الأمر فى الوقت نفسه ، بأن تحول جميع المساجد الباقية فى الحال إلى كنائس .

كان لقرارات هذا الملك أسوأ وقع لدى المسلمين ، وما لبثت أن نشبت الثورة فى معظم الأنحاء التى يقطنونها فى سرقسطة وبلنسية وغيرهما ، واعتزم المسلمون على الموت فى سبيل الدين والحرية ، إلا أن الأسبان كانوا يملكون السلاح والعتاد فاستطاعوا أن يخمدوا هذه الثورات المحلية باستثناء بلنسية التى كانت تضم حشداً كبيراً من المسلمين يبلغ زهاء (٢٧) ألف أسرة ، فإنها استعصت عليهم ، لوقوعها على البحر واتصالها بمسلمى المغرب .

وقد أبدى مسلمو بلنسية مقاومة عنيفة لقرارات التنصير ، ولجأت جموع كبيرة منهم إلى ضاحية (بنى وزير) فجردت الحكومة عليهم قوة كبيرة مزودة بالمدافع ، وأرغمت المسلمين فى النهاية على التسليم والخضوع ، وأرسل إليهم

الملك إعلان الأمان على أن يتنصروا ، وعدلت عقوبة الـرق إلـى الغرامـة، وافتدى الأندلسيون من الملك حق ارتداء ملابسهم القومية بمبلغ طائل .

وكانت سياسة شارل الخامس محاولة لتهدئة الأوضاع فى جنوب أسبانيا حتى يتفرغ للاضطرابات التى اندلعت فى ألمانيا وهولندا بعد ظهور مارتن لوثر وأطروحاته الدينية لإصلاح الكنيسة وانتشار البروتستانتية لذلك كان بحاجة إلى توجيه كل اهتمامه واهتمام محاكم التحقيق إلى " الهراطقة " فى شمال أوربا كما أن قيام محاكم التحقيق بما يفترض أن تقوم بـه كـان يعنـى احـراق جميـع الأندلسيين، لأن الكنيسة تدرك أن تنصرهم شكلى ولا قيمة له ، يضاف إلى ذلك أن معظم المزارعين الأندلسيين كانوا يعملون لحساب النبلاء أو الكنيسة ، وكان من مصلحة هؤلاء الإبقاء على المزارعين وعدم إبادتهم .

وكان شارل الخامس حينما أصدر قراره بتنصـير المسـلمين ، وعـد بتحقيق المساواة بينهم وبين النصارى فى الحقوق والواجبـات ، ولكـن هـذه المساواة لم تتحقق قط ، وشعر هؤلاء أنهم ما زالوا موضع الريب والاضطهاد ، ففرضت عليهم ضرائب كثيرة لا يخضع لها النصارى ، وكانت وطـأة الحيـاة تثقل عليهم شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحوا أشبه بالرقيق ، ولما شـعرت السـلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة ، أصدرت قراراً يحرم عليهم تغيير مسـاكنهم ، كما حرم عليهم النزوح إلى بلنسية التى كانت دائماً طريقهم المفضل إلى الهجرة، ثم صدر قرار بتحريم الهجرة من هذه الثغور إلا بترخيص ملكى ، نظير رسوم فادحة ، وكان ديوان التحقيق يسهر على حركة الهجرة ويعمـل علـى قمعهـا بشدة .

وكانت الأمة الأندلسية خلال هذا الاستشهاد المحزن الذى فرض عليهـا تحاول بكل وسيلة أن تستبقى دينها وتراثها ، فكان الموريسكيون بـالرغم مـن دخولهم فى النصرانية يتعلقون سراً بالإسلام ، وكان كثيرون منهم يؤدون شعائر

الإسلام خفية ، وكانوا يحافظون على لغتهم العربية ، إلا أن السياسة الأسبانية فطنت إلى أهمية اللغة فى تدعيم الروح القومية ، لذلك أصدر شارل الخامس سنة ١٥٢٦ أول قانون يحرم التخاطب بالعربية على الموريسكيين ولكنه لم يطبق بشدة لأن هؤلاء الموريسكيين دفعوا له (١٠٠) ألف دوقة حتى يسمح لهم بالتحدث بالعربية ، ثم أصدر الملك فيليب الثانى سنة ١٥٦٦ قانوناً جديداً يحرم التخاطب بالعربية وطبق بمنتهى الشدة والصرامة ، وفرضت القشتالية كلغة للتخاطب والتعامل ، ومع ذلك وجد الموريسكيون فى القشتالية متنفساً لتفكيرهم وأدبهم فكانوا يكتبونها سراً بأحرف عربية ، وأسفر ذلك بمضى الزمن عن خلق لغة جديدة هى " ألخميادو" وهى تحريف إسبانى لكلمة " الأعجمية " ولبثت هذه اللغة قرنين من الزمان سراً مطموراً وبذلك استطاعوا أن يحتفظوا بعقيدتهم الإسلامية ، وألف بها بعض الفقهاء والعلماء كتباً عما يجب أن يعتقد المسلم ويفعله حتى يحتفظ بإسلامه ، وشرحوا آيات القرآن باللغة الألخميادية ، وكذلك سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان من أشهر كتاب هذه اللغة الفقيه المسمى " فتى أبيرالو " وهو مؤلف لكتب التفسير وتلخيص السنة ، ومن الشعراء محمد ربدان الذى نظم كثيراً من القصائد والأغنيات الدينية ، وبذلك تحصن الموريسكيون فصمدوا فى وجه مساعى المنصرين الذين لم تنجح جهودهم التبشيرية والتعليمية والارهابية فى الوصول إلى تنصير كامل لهؤلاء الموريسكيين فجاء قرار الطرد بعد هذه الاخفاقات .

ولم تفلح مساعى الموريسكيين فى الحصول على دعم خارجى فعال من الدولة العثمانية أو المماليك فى مصر ، رغم حملات الإغارة والقرصنة التى قام بها العثمانيون والجزائريون على السفن والشواطئ الأسبانية ودعم الثوار الموريسكيين .

واستمرت محاكم التحقيق فى محاربة هؤلاء المسلمين طوال القرن

السادس عشر الميلادى ، وهو ما يدل على أن آثار الإسلام الراسخة فى النفوس بقيت بالرغم من المحن الرهيبة وتعاقب السنين ، ولعل من المفيد أن نـذكر أن رجلاً اسبانياً يدعى " بدية " توجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحـج سـنة (١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م) أى بعد ٣٢٩ سنة من قيام محاكم التفتيش .

وبعد مرور عدة قرون من سقوط الأندلس ، أرسل نابليون حملته إلـى أسبانيا واصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ بإلغـاء دواويـن التفتـيش فـى المملكـة الأسبانية .

اكتشاف العالم الجديد

فى يوم الجمعة ٣ أغسطس ١٤٩٢ م أقلعت من ميناء " بالوس " بأسبانيا ثلاث سفن صغيرة تحمل على ظهورها أقل من مائة رجل تحت قيادة كرستوفر كولمبس ، وشقت عباب بحر لم يكن قد عرف على الخرائط حتى ذلك الحين لتكشف طريقاً جديداً إلى الشرق الأقصى .

وفى تلك الأيام كانت كل أوربا ترنو إلى كشف طريق تجارى قصير يصل إلى الشرق الأقصى إذ أن التوابل والذهب والحرير كانت تجلب من آسيا إلى أوربا عبر طرق برية طويلة وكان هناك أمل فى كشف طريق بحرى أقل طولاً وأكثر سهولة ... ولا يعرف أحد على وجه التحقيق متى تبلورت فى ذهن كولمبس فكرة الإبحار غرباً ليكشف عن الشرق الأقصى ولكن يمكن القول بأنه كان مشتاقاً إلى تنفيذ فكرته عندما بلغ الثلاثين من عمره.

وكان كولمبس الذى ولد بجنوا بإيطاليا عام ١٤٤٦م وكثير من معاصريه يعتقدون أن الأرض كروية ، ولذا فكر فى أنه ما دام الأمر كذلك وما دامت آسيا تمتد إلى أقاق بعيدة صوب الشرق فلابد إذن أنها تحتل جزءاً كبيراً من الطريق حول الكرة الأرضية ، وجادل كولمبس فى أن الصين والهند ليستا بعيدتين أشد البعد جهة الغرب ولكنه لم يستطع تقدير مساحة الكرة الأرضية .

طلب كولمبس أول الأمر من ملك البرتغال أن يعطيه رجالاً وسفناً ولكنه رفض لأنه كان يريد كشف طريق حول أفريقيا ، فذهب إلى فرديناند وايـزابيلا ملكى أسبانيا فوافقا على ذلك ، ولكنهما رأيا أنه مغال فى تقدير مكافأته إذا مـا أصابه التوفيق لأنه طلب $\frac{1}{10}$ الثروات التى يعود بها ، وطالب فوق ذلك بتنصيبه "أميراً على البحار" فرفضا أول الأمر ، ولكنهما رجعا عن رأيهما عندما علمـا بأنه اعتزم الالتجاء إلى ملك فرنسا فأعطياه ما أراد من سفن.

أقلعت به السفن الصغيرة من بالوس حتى وصلت إلى جـزر كنـارى ومنها أبحرت متجهة نحو الغرب رأساً فى مياه مجهولة وكانت الريح مسـتقرة غير متقلبة فدفعت بها فى طريقها آمنة ... وظلت السفن تبحر غرباً لعدة أسابيع حتى استبدَّ القلق بالرجال إذ لم يسبق أن غابت الأرض عن أبصارهم هذه الفترة الطويلة ، ولما طال بهم الوقت هددوا بالعصيان ولكن كولمبس أقـنعهم وحـثهم على مواصلة الإبحار .

كان كولمبس حريصاً على تسجيل يومياته فى أثناء الرحلة ، وقـد دون فيها بتاريخ ١٠ أكتوبر ما نصه " هنا لا يستطيع الرجال أن يحتملوا أكثر مـن ذلك " ولكنه أقنعهم مرة أخرى بمواصلة إبحارهم ، وبعد ليلتين أبصروا الأرض ونزلوا إليها عند مطلع الفجر ، وقد أطلق كولومبس على المنطقة التـى نزلـوا إليها وهى أول مكان وصل إليه اسم سان سلفادور ، و يعنى هذا الاسم " المنقذ " أو " المخلص " .

ظل كولمبس يتنقل من جزيرة إلى أخرى وقد استولى اليأس على رجاله لأنهم لم يعثروا على مدن فيها ثروات ضخمة كما كانوا يأملون ، بـل وجـدوا قرى قليلة يقطنها أناس ملونون ، ولما كان قد خيل إلى كولمبس أنه قد أقتـرب من الهند ، لذلك سماهم الهنود الحمر لأنهم كـانوا يشـبهون الهنـود لكـنهم لا يتكلمون اللغة الهندية وكانت بشرتهم أقرب إلى النحاس الأحمر .

وبعد مسيرة شهرين أو ثلاثة متنقلاً بين الجزر رجع كولمبس إلى أسبانيا دون تحقيق ما وعد به فثار المسئولون لذلك ، ولكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى قام برحلة أخرى ومعه (١٧) سفينة وما يزيد على ألف رجل ، ومع ذلك فإنه لم يجد فى هذه المرة أيضاً إلا الجزر ... وفى رحلته الثالثة إلى الدنيا الجديدة وصل إلى شاطئ أمريكا الجنوبية ، ولكنه ظن أنها لم تكن سوى جزيرة أخرى فى طريقه إلى الشرق الأقصى ، وفى هذه المرة أعيد إلى أسبانيا مقيداً بالأغلال وسجن ، ولكن سرعان ما عفا عنه الملك فقام برحلة أخرى ومع ذلك لم يجد بها ما كان يأمل من ثروات .

وفى عام ١٥٠٦ م مات كولمبس وهو يعتقد أن أمريكا ليست إلا مجموعة من الجزر فى الطريق إلى الشرق الأقصى ، ولم يدر بخلده مطلقاً أنه اكتشف عالماً جديداً.

وفى أوائل القرن السادس عشر أرسل ملك البرتغال أحد الملاحين الإيطاليين وهو " أمريجو فسبوتشى " ليستطلع الأرض التى تقع شرقى خط التقسيم الذى وضعه البابا لحسم النزاع الذى كان قد نشأ بين أسبانيا والبرتغال حول مجال نشاطهما الكشفى فقضى البابا – الذى احتكما إليه – بتصور خط وهمى يصل بين القطبين على بعد ١١١٠ ميل غربى جزر أزور بالمحيط الأطلنطى ويكون ما يقع شرقه للبرتغال وما يقع غربه لأسبانيا ثم حدثت التعديلات لصالح البرتغال ... وعلى هذا عندما ذهب أمريجو فسبوتشى ليستطلع منطقة نفوذ البرتغال رسى على شاطئ البرازيل وهناك أيقن أن ما كشف عن طريق الغرب ليس فى آسيا ، وإنما هو عالم جديد وكتب تقريراً عن رحلته يتضمن تلك الحقيقة ، وقد سمى العالم الجديد بأمريكا نسبة إلى اسمه.

الهنود الحمر ... الوطن لا يسقط بالتقادم

عندما وصل " كريستوفر كولومبس " إلى العالم الجديد عام ١٤٩٢ كان عدد الهنود الحمر يصل إلى حوالى ٧٥ مليون نسمة ... جاءوا إلى الأمريكتين عبر مضيق بيرنج بشمال شرق سيبيريا منذ ١٠ آلاف سنة قبل انحسار العصر الجليدى الأخير ، وكان المضيق وقتها يربط شمال غرب أمريكا الشمالية بشمال شرق آسيا ... واستطاع السكان الأوائل تسخير الطبيعة ، وتأقلموا مع المناخ والأرض ، وخلال آلاف السنين أقاموا ثقافتهم وحضارتهم بشمال شرق القارة ، وظهرت بأمريكا الشمالية حضارة النحاس ، كما عاشوا حول البحيرات الكبرى بكندا والولايات المتحدة ، ومن بين مئات القبائل كان لكل قبيلة نظامها العشائرى والسياسى ونموذج الملابس والاطعمة واللغة والفنون ونماذج موسيقية ومعتقداتها الفلسفية والدينية الخاصة ، وكانت لهم سمات ثقافية تشبه ما هو موجود فى مجتمعات أخرى بالعالم القديم من بينها الارتباط بالأرض التى يعيشون فيها ، وكانت أعيادهم مرتبطة بمواسم الحصاد والزراعة ، وكان للقبائل الهندية أعرافها وتقاليدها ، منها إجارة من يستجير بالقبيلة حتى لو كان من أعدائها ، وعدم قتل الأطفال والنساء أثناء القتال ، وظهرت بأمريكا الشمالية حضارة نسجت القطن وصنعت تماثيل المرمر .

ومنذ وصول كولومبس بدأت أكبر حرب إبادة فى التاريخ ، فبرغم أنه وصف سكان الإنديز الغربية " الاراواكس " بأنهم قوم خجولين بسطاء أحرار كرماء ، فإنه فى رحلته الثانية إلى الامريكتين أطلق العنان لفترة من الارهاب لم ير العالم مثلها ، وعندما انتهى من عمله كان ثمانية ملايين من الاراواكس ويمثلون تقريباً مجموع السكان قد أبيدوا عن آخرهم بالتعذيب والقتل والسخرة والموت جوعاً ومرضاً ويأساً ...

ومن البداية اعتبر الأسبان الهنود الحمر نوعاً من الغنائم ، وعندما كان اجهادهم بالعمل حتى الموت أكثر اقتصادية من معاملتهم بشكل إنسانى فقد كانوا بالفعل يجهدونهم حتى الموت ، أما الإنجليز فلم يجدوا أى جدوى من الهنود الحمر – الذين لا تستطيع الكنيسة التعامل معهم – إلا الموت أو الاستعباد .

وكانت " هايتى " قاعدة لاصطياد الهنود الحمر الذين ملئت بهم السفن عائدة إلى أسبانيا ، حيث كانوا يعرضون للبيع فى مزادات ، وخلال عامين مات حوالى نصف الهنود الحمر فى هايتى إما عن طريق القتل أو الانتحار ، وبطول عام ١٦٥٠م لم يعد على الجزيرة أحد من الهنود الحمر على الإطلاق بعد أن كان عددهم ربع مليون نسمة .

وفى عام ١٦٠٦ أعطى الملك " جاكوب الأول " شركتين إنجليزيتين حق استعمار أمريكا الشمالية بين خطى العرض ٣٤ و ٤٥ ، وأسست الشركتان مستعمرة " جيمس تاون " وأسموا المنطقة المحيطة " فيرجينيا " والتى وصفها قائد المستعمرة الإنجليزى قائلاً " لم يسبق أن اتحدت الأرض والسماء بهذا الانسجام المتكامل لتمنح سكناً رائعاً للبشر " المشكلة أن المكان كان وطن جماعة من الهنود الحمر هم هنود " البوهاتان" .

وبعد حوالى سنتين أصابت المستعمرة مجاعة فى شتاء ١٦٠٩ –

١٦١٠ ولم يبق من المستعمرين الـ ٦٠٠ غير ٥٠ شخصاً ، أما الباقى فمات أكثرهم ولجأ آخرون إلى البوهاتان من أجل الطعام وحين طلب المستعمرون من رئيس القبيلة طرد اللاجئين إليه منهم ، رفض بإباء فقتل المستعمرون ١٥ هندياً وأشعلوا الأكواخ ودمروا الحقول ثم أمسكوا زوجة الزعيم وطفليها وساروا بهم فى قارب تجديف ثم ألقوا بالطفلين فى الماء وأطلقوا النار عليهما أمام عين أمهما التى قتلوها بعد ذلك بالسكين .

ورغم ذلك كله لم يتورط البوهاتان فى الحرب إلا بعد عقد من السنين حيث هاجموا المستوطنين وقتلوا المئات منهم عام ١٦٢٢م.

وفى عام ١٦٤١م عرض الحاكم الهولندى فى مانهاتن لأول مرة "جائزة فروة الرأس" حيث تقدم الحكومة مبلغاً من المال لكل من يجلب لها فروة رأس رجل هندى ونصف المبلغ لفروات رؤوس النساء والأطفال ، وقام الهولنديون بإبادة جميع سكان نيوانجلند الأصليين ، وعقب مذبحة مروعة فى ستانفورد أعلنت كنائس مانهاتن يوم " عيد الشكر " إنتصاراً على الهنود الحمر أو ما أسموهم ... المتوحشين !!.

ومع مطلع القرن السابع عشر كان عدد الهنود الحمر فى عموم القارتين الأمريكتين أقل من ثمانى ملايين ، وفى عام ١٧٠٣ أصدرت الجمعية التشريعية (البرلمان) الأمريكى تشريعاً يبيح الإبادة الجماعية لمن تبقى من الهنود الحمر فأصدرت قراراً بتقديم مكافأة مقدارها ٤٠ جنيهاً مقابل كل فروة مسلوخة من رأس هندى أحمر ، و٤٠ جنيهاً مقابل أسر كل واحد منهم ، وبعد خمسة عشر عاماً ارتفعت المكافأة إلى ١٠٠ جنيه و ٥٠ جنيه مقابل فروة رأس إمرأة أوفروة رأس طفل.

وفى عام ١٧٦٣ أمر القائد الأمريكى (البريطانى الأصل) " جفرى

آهرست" بتوزيع بطانيات كانت تستخدم فى مصحات علاج الجدرى على الهنود الحمر بهدف نشر المرض بينهم مما أدى إلى انتشار الوباء الذى نتج عنه موت الملايين من الهنود ، ونتج عن ذلك شبه إفناء للسكان الاصليين فى القارة الأمريكية ، إنها حرب جرثومية بكل ما فى الكلمة من معنى ، وكان أخطر ما فيها أنه لم يكن لهذا المرض أى وجود فى القارتين الأمريكتين بما يعنى أن المرض لم يكن مستوطناً هناك ، ويعنى هذا أيضاً أن السكان الأصليين ليس لديهم مناعة ضد هذا الوباء الجرثومى .

وكان المؤرخ الأسبانى " لاس كاساس " الذى فضح جرائم الأسبان فى أمريكا الجنوبية بكتابه الشهير " تدمير الهنود الحمر " قد أثار القضية أمام المحاكم الأسبانية ... فلجأت الحكومة هناك إلى تهدئة الرأى العام الثائر بإصدار قانون يمنع استعباد الهنود بشكل شخصى ، لكن النصوص – كما يقول لاس كاساس – لم تعرف سبيلها إلى التطبيق الواقعى أبداً فى الأمريكتين ، وانتشر فى كل أمريكا الجنوبية كذلك نظام بمقتضاه يسيطر المالك الأبيض لقطعة أرض علىكل الهنود الذين يعملون فيها .

وفى عام ١٨٥٠م أصدر برلمان ولاية كاليفورنيا فى أول جلسة تشريعية له قانوناً جعل خطف الهنود الحمر واستعبادهم عملاً قانونياً ، وبموجب تعديلات أضيفت عام ١٨٦٠م تم اجبار عشرة ملايين هندى أحمر على القيام بأعمال "السخرة" حتى الموت ، ولم تمض سنوات على هذا التشريع حتى ضاق حاكم الولاية " بيتر بيزنت " بالسخرة فوجه رسالة إلى المجلس التشريعى قال فيها "إن الرجل الأبيض الذى يعتبر الوقت من ذهب ، والذى يعمل طوال النهار ، لا يستطيع أن يسهر طوال الليل لحراسة أملاكه ، وليس أمامه خيار آخر سوى شن حرب إبادة !!! .

وهكذا لم تنته إبادة الهنود الحمر حتى مع إعلان قيام دولة الولايات

المتحدة عام ١٧٧٦ بل استمرت لأكثر من قرن بعد ذلك ، حيث استمرت جائزة فروة الرأس ، وكان ثمنها فى ذلك الوقت يزيد عما يكسبه الفلاح من العمل سنة كاملة فى حقوله ، ولم تلغ هذه القوانين إلا قبيل القرن العشرين حيث ألغيت آخرها فى تكساس عام ١٨٨١م ... ولكن التاريخ لم ينس أنه كان هناك ذات يوم تاريخ وشعب وحضارة ... ووطن.

فاسكو دا جاما ... الإبحار إلى الهند بأى ثمن!

يعد فاسكو دا جاما (١٤٦٩ – ١٥٢٤ م) من أشهر مستكشفى البرتغال فى عصر الاستكشاف الأوربى ، وهو أول من سافر من أوربا إلى الهند بحراً عن طريق رأس الرجاء الصالح ، حين كلفه ملك البرتغال مانويل الأول بإيجاد طريق بحرى يوصل إلى شرق آسيا ، ويفتح أسواقها التجارية للبرتغاليين .

فى ٨ يوليو ١٤٩٧ خرج أسطول من أربع سفن من لشبونة بقيادة فاسكو دا جاما وشقيقه باولو ، ومع دخول السنة الجديدة وصل الأسطول إلى ما يعرف اليوم بموزمبيق على الشاطئ الشرقى لافريقيا والتى كانت جزءاً من الشبكة التجارية فى المحيط الهندى ، ولخوفه من أن يتخذ السكان المحليون موقفاً عدائياً منهم لكونهم مسيحيين ، تصنع دا جاما الإسلام وتمكن من أن يقابل سلطان البلاد، ولكن السكان المحليين شكوا فيهم فهاجموهم غاضبين فاضطر دا جاما ورجاله أن يغادروا البلاد وأبحر مبتعداً قاصفاً المدينة بالمدافع انتقاماً منهم .

لجأت الحملة إلى القرصنة عندما كانت بالمقربة مما يعرف اليوم بكينيا، حيث قامت بنهب سفن التجارة العربية ، خاصة غير المسلحة ، وبوصولهم إلى هذه النقطة ، أصبح البرتغاليون أول من زار ميناء مومباسا من الأوربيين ولكنهم قوبلوا بالسخط وما لبثوا أن غادروها .

بعد ذلك تابع دا جاما رحلته شمالاً باتجاه ماليندى التى كان قادتها على خلاف مع قادة مومباسا وهنالك لاحظت الحملة وجود التجار الهندوس لأول مرة، وهناك تعاقدت الحملة مع الدليل العربى احمد بن ماجد والذى استطاع بخبرته التعامل مع الرياح الموسمية وأن يصل بالحملة إلى كاليكوت (ما يعرف اليوم بكوزيكود) فى جنوب غرب الهند.

وصلت الحملة إلى الهند فى ٢٠ مايو من عام ١٤٩٨ م تلى ذلك بعض المفاوضات مع الحاكم المحلى ساموثيرى راجا والتى كانت عنيفة فى بعض الأحيان نتيجة لمعارضة التجار العرب ، واستطاع دا جاما فى النهاية أن يحصل على وثيقة مريبة تعطيه حق التجارة فى البلاد ، ولكنه اضطر أن يترك جميع بضائعه كضمانة ، وترك دا جاما مع البضائع بعضاً من رجاله وأمرهم أن يبدأوا تجارتهم .

وعندما وصل دا جاما إلى البرتغال فى سبتمبر ١٤٩٩م كوفئ لإنجاحه خطة دامت ثمان سنوات من طور التحضير ، فقد قلد لقب ادميرال المحيط الهندى ، ومنح حقوقاً اقطاعية فى ساينز، وأعطى أيضاً لقب (كونت) من قبل مانويل الأول والذى عين له مرتباً مقداره ٣٠٠,٠٠٠ ريال سنوياً له ولذريته من بعده.

كان من نتائج رحلة دا جاما أن أدرك البرتغاليون أهمية الشاطئ الشرقى من أفريقيا لمصالحهم ، فقد كانت الموانئ فى هذه المنطقة توفر لهم الماء والزاد، بالإضافة إلى الخشب والمرافئ للقيام بعمليات إصلاح السفن ، كما أنها توفر لهم المأوى إلى حين انقضاء الفصول الصعبة من السنة ، وكان من نتائجها أيضاً أن أصبحت سلعة البهارات من العناصر الأساسية فى اقتصاد البرتغال .

وفى مطلع القرن السادس عشر ، كان بيدرو ألفاريس كابرال قد أرسل

إلى الهند حيث اكتشف أن التجار الذين تركهم دا جاما قد قتلوا ، وقوبل هو بمقاومة أشد دفعته لقصف كاليكوت ، جلب بيدرو معه الحرير والذهب إلى البرتغال ليثبت أنه كان فى الهند أيضاً ، بعد ذلك بعامين عاد دا جاما إلى الإبحار مرة ثانية فى ١٢ فبراير ١٥٠٢م ولكن فى أسطول من عشرين سفينة حربية لمحاولة تدعيم المصالح البرتغالية .

وفى طريقه انتظر دا جاما سفينة كانت عائدة بالحجاج من مكة وقام بسلب جميع بضائعها ، ثم قام بحشر جميع الركاب والبالغ عددهم ٣٨٠ فى سفينة واضرم بها النار ، استغرقت السفينة أربعة أيام لتغرق فى البحر مما أدى إلى مقتل جميع من فيها من رجال ونساء وأطفال .

قام دا جاما بعد ذلك بالاعتداء وجمع الاتاوة من ميناء كيلوا فى شرق أفريقيا وهو أحد الموانئ التى استعصت أمام مخططات البرتغاليين ، وكان وقتها أحد الولايات الإسلامية الغنية ، كما عمل دا جاما على خطف سفن التجارة العربية ، ثم حطم أسطول من كاليكوت تعداده تسع وعشرون سفينة محتلاً بذلك المدينة ، طلب دا جاما من حاكم المدينة أن يقصى جميع المسلمين من البلاد ، وفى محاولة منه لارهابهم قام دا جاما بشنق ٣٨ صياداً ، ثم قطع رؤوسهم وأيديهم وأرجلهم ، ثم رمى بالجثث والأشلاء لتطفوا بالقرب من الشاطئ ، عرضت المدينة على دا جاما تسهيلات تجارية كبيرة مقابل السلام والصلح ، وقام هو بعمليات نهب ضخمة الأمر الذى رفع من مكانته لدى حاكم البرتغال .

وعند عودته قلد دا جاما لقب كونت فاديغويرا واقطعت له الأراضى فيها وفى فيلا دوس فرادس وأعطى السلطة القضائية فيهما .

أرسل دا جاما مرة ثالثة إلى الهند فى عام ١٥٢٤م بعد أن اكتسب شهرة بكونه قادراً على حل المشاكل التى تعترض البرتغاليين هناك ، وكان الهدف من

إرساله هذه المرة هو استبدال إدوارد دى مينيزس الـذى لـم يتمتـع بالكفـاءة المطلوبة ، ليقوم على أملاك البرتغال هناك لكنه مات بعد وصوله إلى كاليكوت بفترة قصيرة .

الساموراى ... روح اليابان

فى حوالى القرن السادس عشر ظهرت فى اليابان طبقة من المحاربين الأشداء عرفت باسم " الساموراى " ومعناها " الرجل الذى ينتظر الأوامر" وشكلوا فيما بعد طبقة أشبه بطبقة النبلاء ، واستمر الساموراى حتى نهاية القرن التاسع عشر عندما أنهى الإمبراطور " ميجى " النظام الاقطاعى فى اليابان ، حيث حظرت الحكومة وجود الساموراى عام ١٨٧١ ، وحظرت عليهم إمتيازاتهم وحمل اسلحتهم ، ومنحتهم منحة خاصة مقابل ما كانوا يتقاضونه كمرتبات قبل الحظر كخطوة انتقالية إلى أن يندمجوا فى المجتمع الجديد ، وهو ما حدث بالفعل .

كان دور محاربى الساموراى هو حمل السلاح وخوض المعارك لصالح حكامهم العسكريين الذين عرفوا باسم " شوغون " وكانوا بذلك يشكلون طبقة خاصة مثل " الحرس الخاص " فى أيامنا هذه ، ولذلك لم يكن محارب الساموراى يعمل فى أى وظيفة أخرى غير الخدمة العسكرية ، ومع الوقت تشكلت لدى هذه الطبقة مفاهيم وقيم خاصة أثرت فى المجتمع اليابانى ، وما زالت آثارها موجودة حتى اليوم على الرغم من نهاية عهد الساموراى قبل أكثر من مائة عام .

إلا أن الذى جعل الساموراى طبقة فريدة فى المجتمع اليابانى وفى التاريخ الإنسانى على وجه العموم هو الالتزام الاخلاقى لأفراد هذه الطبقة أو ما يطلق عليه اسم " بوشيدو " وهى " طرائق الفارس المحارب " ... أنها وصايا النبل التى اتفق عليها الساموراى فهى قانون للمبادئ الأخلاقية التى يحكم حياتهم، وعلى الرغم من أنه قانون غير مكتوب ويتألف من بعض الشعارات التى كانت تتناقل شفاهة ، إلا أن تأثيره كان أكبر من كثير من الدساتير الموجودة فى العالم اليوم ... وتستمد مصدرها من مجموعة المعتقدات الدينية التى كانت سائدة فى اليابان والتى تقوم على التأمل والتفكير العميق والسمو بالروح إلى طبقات الكمال الإنسانى .

تعليم البوشيدو يتألف أساساً من المبارزة والرماية والجودو وركوب الخيل والمناورة والأخلاق والأدب والتاريخ .

من أهم مبادئ البوشيدو الاستقامة والعدل فقد كان لقب " جيشى " أعظم الألقاب التى يمكن أن يحصل عليه الساموراى وهو يعنى (رجل الاستقامة) ، حيث لم تقل مكانة الاستقامة والشرف عن البسالة فى الحرب بل إنهما لصيقان ، حيث لا يجرؤ الساموراى على الخيانة حتى لو كان ذلك على حساب حياته .

ولكن الاستقامة لا تعدو شيئاً دون التفكير السليم أو كما يسميه الساموراى " الجيرى " وهو الإطار الذى يحكم الاستقامة والعدل ، وعند الساموراى تعد الشجاعة والجسارة أحد أهم الأمور المكونة لمبادئ البوشيدو وهى كما يعرفها كونفوشيوس " فعل ما هو صواب " ، ويقول عنها أحد محاربى الساموراى " الشجاعة هى الموت عندما يكون الموت صواباً ، وهى الحياة عندما تكون الحياة صواباً " ، فالساموراى يعمل طوال حياته من أجل قضية معينة ومن دون ذلك لا تكون لحياته أو حتى موته قيمة ، حتى أنه يقدم على الانتحار " الهاراكيرى " للموت بشرف .

وعلى حين يظن الكثير بأن محارب السامورای شخص متوحش لا قلب له ، وهو ما كاد أن يكونه نتيجة التدريبات الشديدة التى يخضع لها منذ نعومة أظافره ، إلا أن تعاليم البوشيدو التى كان جوهرها الترفع بالنفس عن كل ما هو مشين وفهم روح الحياة ، أدت إلى خلق التوازن فى نفس محارب السامورای الذى يحمل بين جنبيه شجاعة وبأساً فى إطار رحيم يجعله يمعن القلب قبل العقل فى جميع أعماله .

لقد اشتهر السامورای بصدقه وإخلاصه حتى أن القسم كان يعد انتقاصاً من كرامته ، فوعده لا يخلف وكلمته تحمل فى طياتها شرفه الذى هو أغلى شئ عنده ، وفى تعاليم البوشيدو فإن الإخلاص هو غاية كل الأشياء ومبتداها ومن دونه يسود العدم ، أما بالنسبة للشرف فهو أهم شئ سواء كان حياً أو ميتاً وهو المعيار الذى تصنف على أساسه العائلات فى المجتمع .

لقد شكل السامورای ٥% فقط من المجتمع اليابانى إلا أن تعاليمهم تسمى " روح اليابان " حيث سرت هذه الروح فى كل يابانى ، فكما قال أحد الحكماء "لا حاجة إلا لحكيم واحد وسط مجموعة من الناس لتسود الحكمة ، فعدواها سريعة للغاية " .!

عبقرية دافنشى

إنه رجل استيقظ ذات ليلة مبكراً جداً ، حين كان الجميع يغطون فى نوم عميق ، أطال التحديق إلى أعماق عصره ، وقاد مرحلة طويلة من مراحل عصر النهضة ليسبق حاضره ويتخطى حدود الزمن ... كان عبقرى عمالقة عصر النهضة ، فقد أظهر نبوغاً منقطع النظير فى الرسم والنحت والهندسة المدنية والعسكرية والموسيقى وعلم التشريح والعمارة والمخترعات ... إنه ليوناردو دافنشى .

ولد دافنشى (١٤٥٢ – ١٥١٩م) فى قرية فنشى الإيطالية ، ثم انتقل مع عائلته إلى فلورنسا ، فدرس الأدب والرياضيات والموسيقى والتصوير واللغة اللاتينية ، وقد لاحظ والده سرعة تعلمه الفائقة فألحقه مساعداً للفنان الكبير "فيركيو" ، وهناك اكتسب الأسس النظرية الكافية لبلورة اهتمامه فى تآلف الفن والعلم وكيفية تهيئة العلم بالوسائل التقنية المتطورة ، واستفاد من فلسفة أفلاطون التى كان أكاديميو فلورنسا من أنصارها ، وقد شهدت سنوات دراسته ما بين ١٤٦٦ – ١٤٧٩م ظهور مجموعة كاملة من الرسامين البارزين مثل بياتر ديللا فرنشيسكا – بوتشيللى – مونتالى وغيرهم ، وقد أبدى دافنشى اهتماماً كبيراً بالعلوم الطبيعية فى فلورنسا بتأثير من كونها مركزاً كبيراً لصناعة النسيج

وساعدت تجاربه وملاحظاته الشخصية على بلورة اهتماماته العلمية ، وينبغي الإشارة إلى أنه قرأ كثيراً وتردد على مكتبات فلورنسا واستعار الكتب من أصدقائه فتعرف على مؤلفات أرسطو وبطليموس واسترابون وارخميدس وإقليدس وفيروفيوس وبليتوس ، وعلى علماء الشرق .

وحين بلغ الثلاثين من عمره كان قد دخل فى خدمة دوق ميلان فى وظيفة فنان ومهندس ، وقد ظل فى هذه الوظيفة حتى عام ١٤٩٩م ، حين طرد لويس الثانى عشر ملك فرنسا الدوق من ميلان ، فذهب ليوناردو إلى فلورنسا ، وفى خلال الفترة التى قضاها فى ميلان نصب التمثال الذى نحته " لفرنسسكو سفورزا " وهو يمتطى صهوة جواد ، كما أنه رسم بين عامى ١٤٩٤ – ١٤٩٨م تحفته الخالدة " العشاء الأخير " وقد دب العطب فيها على مر القرون ولكنها أعيدت اليوم إلى حالتها الأولى ، ولقد صارت الظلال منذ اكتشاف ليوناردو دافنشى عنصراً أساسياً كما أوضحها فى هذه اللوحة التى رسمها على جدران قاعة طعام الرهبان الدومنيك بدير القديسة ماريا ديل جراتسيا ، وتصور هذه اللوحة موضوع العشاء الربانى فى الوقت الذى قال فيه المسيح للحواريين "سوف يغدر بى أحدكم " ... وقد قام ليوناردو بعمل دراسات تحضيرية لمشروع هذه اللوحة تدل على اهتمامه بفن المنظور ، وفى دراستنا للأشخاص المرسومين فى اللوحة تلاحظ عبقرية ليوناردو فى استخدام الأسلوب المسرحى القصصى فى التعبير عن الموضوع حيث وضحت الانفعالات فى حركات الرؤوس وفى المشاعر المنعكسة على وجوه رفاق المسيح عندما فاجأهم بالخبر فصاروا ينظرون إلى بعض ويتساءلون بدهشة من هو الخائن ؟!

وفى خلال إقامته بفلورنسا رسم ليوناردو دافنشى لوحته الرائعة "الموناليزا" وتعرف أحياناً باسم " الجيوكندا " نسبة للكشف الذى أعلن عنه بعض المتخصصين أن اللوحة لامرأة من عائلة " جيوكوندو " واقترح البعض أن تكون

اللوحة لامرأة شهيرة فى المجتمع الإيطالى آنذاك مثل " إيـزابيلا ديسـتى " أو "سيليا جاليرانى " وذهب آخرون إلى أن تكون الصورة لإحدى فتيات الليـل أو لوالدة " دافنشى " ، وأشارت إحدى النظريات الغربية إلى أن اللوحة قد تكـون صورة ساخرة رسمها " دافنشى " لنفسه نظراً لتقارب ملامح المرأة فى اللوحـة وملامح "دافنشى" نفسه ...!؟

إن تعددية اهتمامات دافنشى العلمية والفنية ، جعلـت عبقريتـه الفـذة تتصف بالتكامل الإبداعى ، وأدت فى الوقت نفسه إلى توزع قدراته واهتماماته وتجلت فى تركه إرثاً فنياً ضخماً من الرسوم والتخطيطات والجداريات والنصب المنحوتة واللوحات التاريخية والدينية غير المنتهية ، فقد كان دافنشى يبدأ العمل فى عمل فنى ما ويتوقف عن إنجازه النهائى لانشغاله بأبحاثه العلمية أو النظرية أو اختباراته فى علم الميكانيكا والجيولوجيا وعلم النبـات والطيـر ... وكـان ليوناردو دافنشى هو الذى أبدع أول نظرية تقليدية عن نقل المياه فى النباتـات عندما قال إن القطاع العرضى للجذع لابـد أن يسـاوى مجمـوع القطاعـات العرضية للأفرع ، ويعرف عن دافنشى أيضاً أنه طرق باب العلوم الفيزيقيـة ، كما ابتدع العديد من الأعمال فى النحت وهندسة البناء ، وترك لنا مـا يقـرب أربعة آلاف رسم ، وقد اشتهرت أعماله الهندسية والفنية فى إيطاليا وفرنسـا ، وبالنسبة للموسيقى فقد اشتهر ليوناردو بعزفه على القيثارة ، أما فى مجال الرسم والتصوير بوجه خاص فهناك الحصيلة الكبـرى المتميـزة وتكـاد ابتكاراتـه وتطلعاته وأفكاره لا تعد ولا تحصى ، والروائع التى أنجزها جاءت دقيقة متقنة، والمؤثرات فيها ذات تفنن بليغ عميق فقد تجاوز بما كان يحمل من موضوعات وأساليب فى التركيب حدود التقليد وتخطى المدارس الإيطالية فى عصره إلى حد بعيد ، وقد وضع فى مذكراته وفى كتابه " كتـاب التصـوير " مجمـل آرائـه ونظرياته ، حول تأثير الطبيعة على فن التصوير وعلاقة الضوء والظل.